اليتيم

أرْضعتْ آمنةُ طفلها أياماً مَعْدودات ثم جَفَّ لبنهُا لما أصابها من هُزال وضَعْف بسببَ حُزنها على زوجها .

وكانت ثُويبة جارية عمِّه أبى لهب تُرضع ابنها فى ذلك الحين ، فأعطتها آمنةُ محمداً لترضعه يومين أو ثلاث حتى تجىءُ المراضع من البادية .

كانت عادة أشراف العرب وقتها إرسالَ أطفالهم إلى مُرضعات البادية لكى يكتسبوا الفَصاحة والعافيةَ والقوةَ . . حيث هناك الهواء النَقىُّ ، واللسانُ الفصيحُ ، والفطْرة الصافية .

وجاءتْ المراضع إلى مكة يَطلبنَ الرُّضعاءَ ، عشرُ نساء من بنى سعد من قبيلة هوُازن ، جاءوا من البادية على ظهور الحمير والإبل ، كل واحدة منهن تريد أن تحظى بطفل من أبناء الأثرياء والوُجهاء ، فيدفع أهلهَ لهن مالاً وفيراً يساعدهن على العيش فى سَعَةٍ ورَغَد ، أو على الأقل يدفعُ عنهن غائلة العَوَز .

خرج عبد المطلب جدُّ محمد إلى المراضع يعرض عليهن الغلام اليتيم ، وهُنَّ يرفضنَ ويُعرضنَ عنه .

ويتنقل عبد المطلب من مُرضعة إلى أخرى ، ويسمعُ كلمات الرفضِ فيستاءُ لذلك كثيراً ، وبعد قليل كانت كلُ مرضعة قد حَظيتْ بطفل رضيع إلا واحدة لمحها عبد المطلب تنتظرُ فى حيرةٍ وتتلفتُ حولها فى قلق .

فذهبَ إليها وسألها : من أنت أيتها المرأة؟

قالت : أنا اسمى حليمةُ . . من بنى سعد .

دَنَا منها عبد المطلب أكثرَ وهو يُردد : حِلْمٌ وسعدا . . خَصْلتان فيهما خير الدهر وعزُّ الأبد . ثم قال :

يا حليمة ، إن عندى غُلاماً يتيماً ، وقد عرضته على المرضعات فأعرضن عنه ، وكل واحدة منهن كانت تُردد نفس الكلمات :

«ما عند اليتيم من الخير . . إنا نلتمسُ الخيرَ من أبٍ غنى . . وما عسى أن تصنع له أمه . . أو جدُّه ؟!

فيا أيتها الحليمةُ السعيدةُ هل لك أن تأخذى هذا الطفل اليتيم لترضعيه فعسى أن تسعدى به؟

قالت حليمة بعد لحظة صمت وتردد : إنتظر حتى أشاور زَوجى .

قال عبد المطلب : لا بأس . . شاورى زوجك وسأنتظرُ .

وعادتْ حليمةُ بعد قليل إلى عبد المطلب وقالت : أين الصبى؟

استبشر عبد المطلب وقال :

هناك فى حضن أمه . تعالى معى لنذهب إليه .

وفى بيت آمنة كان لقاءُ حليمة السعدية بالطفل اليتيم وأُمه . رحبتْ بها آمنةُ ، وأدخلتها على الطفل فى غرفته ، وكان راقداً فى سريره قَريرَ العين .

عندما رأتْ حليمةُ الطفلَ أحستْ انجذاباً إليه ، وسُروراً به ، فحملته وقبَّلته ، وضَمَّته إلى صَدرها . فبدا وجهه جميلاً مُشْرقاً .

وَدَّعَت آمنة طفلها الجميل وأوصت حليمةَ به خيراً ، وقالت لها فى صوت حَزين :

«لا تقلقى يا حليمةُ ، وسوف يصلك معروفنا ـ على قلته ـ ورُبَّ قليلٍ خيرٌ من كثير .

قالت حليمة وهى تَمسحُ دمعةً أفلتتْ منها :

«لا عليك . . سيكون حالنا أحسنَ ببركة هذا الغُلام» .

دخلتْ حليمة على زوجها فى خيمته فوجدته ساهماً شارداً يَرْتقُ ثَوبه ويُحدثُ أطفاله . .

ألقتْ عليه التحية ثم جَلستْ فى رُكنٍ من الخيمة ووضعتْ الغُلام فى حِجْرها ، ووضعَت ثديها فى فمه .

وإذا بالثدى يمتلئُ لبناً ، وتشعر حليمةُ بنشوةٍ وغِبْطةٍ ، والغُلام يرضعُ حتى يرتوى . ثم ينامُ .

وباتتْ الأسرة فى تلك الليلة فى سكينةٍ وسِتْر .

وفى الصباح يقوم الحارث (زوج حليمة) إلى ناقته العَجْفاء ليُطعمها بعض العشب ، ويحلب منها ما تجود به من لبن . ويتعجب الزوجُ وهو يرى الناقةَ المُسنَّة تُدِرُّ لبناً غزيراً لا عَهْدَ لها به منذ حلَّ الجفاف .

ويعودُ الزوجُ مُسْرعاً إلى زوجته وأولاده فرحاً بما جَنَاهُ، فيشربُ من اللبن حتى يرتوى ، وكذلك تَفعلُ زوجته وأولاده .

ويقول الحارثُ لزوجته : لقد أخذت نَسَمَةً مبُاركةً يا حليمة .

فتردُّ حليمة : نعم . . أشعرُ بأن حالَنا سيتحسنُ ببركة هذا الغلام اليتيم .

ويمضى الرَّكبُ الى البادية حيثُ مساكنُ بنى سعد ، التى يبدو عليها أثر الفقر .

وهناك تتبدلُ الأحوالُ تماماً . . فإذا بالأمطار تنزلُ، والمراعى تَخْصب ، والزُروع تنمو ، وتَرتُع الأغنامُ والإبلُ فى خيرات الله ، فتأكل ما شاء لها من العُشب والكَلأ .

وتفيضُ الضُروع باللبن ، وتزدادُ البَركَة . . ويعيشُ بنو سعد فى رَغَد وسَعَة ، ويعيش الغلام اليتيم فى ديارهم هادئاً هانئاً .

ويمر عامان يكون الغلام قد نما فيها نمواً حسناً ، وتخرج حليمة ذات صباح الى أُمه فى مكة .

وتستقبل آمنة وليدها بفرحة شديدة وحَنان ظاهر ، وتَضمُّهُ إلى صدرها فى حُب ، ولا تنسى آمنة فى غمرة الفرح أن تَحتْفى بالمرضعة الطيبة « حليمة السعدية» .

فتنادى على الجارية «بَركة» ـ أم أيمن ـ لكى تُقدم لها فى عُجالة قَدَحاً من لبن مع حفْنة من تمر ، ريثما تُعدُّ مائدةً متواضعة من الطعام .

وتقول آمنة : ما أسعدنى برؤية محمد وقد نما جسمه وبانتْ ملامحهُ . كيف كان حاله عندكم؟ .

حليمة : خيراً . .

ويبدو على حليمة بعضُ الحُزن وهى تُحسُّ ألماً لفراق الغُلام؛ فقد أرضعته حولين كاملين ، وسعدت به طوال هذه المدة وبوجوده معهم بسطُ الله لهم فى الرزق ، وحلَّتْ البركة والسعادة بدارهم . فكيف تتركه بغتةً . . ما أصْعبَ فراقه ، فبفراقه ستفارقهم هذه النِّعم . وتتوسلُ حليمة إلى «آمنة » بأن تردَّ محمداً معها سنةً أخرى لينعمَ بالحياة فى البادية .

وبعد تَشاور تقبلُ آمنة وتوافق مُؤْثرةً الطفل على نفسها . وهُنَالك لا تُخفى حليمةُ سعادتها وفرحتها ، وتمضى بالصبى الى ديار بنى سعد مرة ثانية .

وهناك ينمو الغلام، ويشارك الأولاد لهوهم ولعبهم . ويذهب

أولاد حليمة السَّعدية إلي الوادى يرعون الغنم . ويفتقدهم محمد بالنهار ويطلب منها أن يخرج مع إخوته ليرعى معهم الغنم .

وتقول حليمة : أخشى عليك يا صغيرى قسوةَ الصحراء ، ولفحةَ الهَجير . ويُلحُّ الأولادُ عليها أن يذهب محمد معهم الى المرعى فتوافق وتسمح له حليمة بالخروج مع أولادها لرعى الغنم ، فيرى الصبى الفضاءَ الرَّحب والجبالَ ، والصُّخورَ ، والزُروع والعُشب ، ويهشُّ على الغنم الشاردة .

كان محمدٌ برغم صِغَره ـ يتأملُ كلَّ شيء حوله ، ويُسَرُّ برؤية الطبيعة من حوله بانسجامها وجمالها وكان كثيراً ما يجلس على صخرة فى المرعى يُتابع الشِّياة الصغيرة أثناء أكلها ولهوها ، ويتأمل الطير ، ويُطيل النظر فى السماء كأنما يقرأ سطوراً فى صفحة الكون .

وذات يوم خرجتْ حليمةُ إلى السوق ـ سُوق عكاظ الذى كان يُعقد مرةً كل عام حيث يجتمعُ فيه الشعراء والتجار من كل مكان ، وأخذتْ محمداً معها .

وبعد أن بَاعت ما أرادتْ بيعُه ، واشترتْ ما شاءت ، رأت أن تذهبَ بالصبى إلى (عرَّاف) ـ وكانت هذه عادة العرب ، يعرضون صبيانهم على المُنجمين إلتماساً للخير ، واستقراءاً لأحوالهم .

أخذ العَّرافُ ينظر إلى الصبى ، ويسأله بعض الأسئلة ، ثم لمعَتْ عيناه بغتةً ، وَحدَّقَ فى الصبى بشدة وراح يصيحُ :

يا معشرَ العرب . . يا معشرَ العرب . . اقتلوا هذا الصبى فواللاتَ والعُزَّى ليأتينكم هذا الصبى بدين جديد غير دين آبائكم وأجدادكم ، وليُحطمن آلهتكم . وتكوَّمَ الناسُ عليه يسألون : أىُّ صبى؟! . . أىُّ دين ؟! . . ماذا تقول أيها الشيخ؟

التفتَ العرَّاف ليُشير الى الغلام فلم يجده ، كانتْ حليمةُ قد انتزعت نفسها والصبى من السوق، وقد أفْزعها كلام العرَّاف العجوز .

وفى ظلِّ شجرة هزيلة بعيداً عن السوق جَلستْ حليمةُ السعدية والصبى ، تلتقطُ أنفاسها اللاهثة وتضمُّ الصَبىَّ إلى صدرها فى خَوف وأدركت ساعتها أن هذا الصبى اليتيم ذا شأن عظيم، فعادتْ به إلى الدار ، وأحاطته بالرعاية أكثر وأكثر .

ثم بدا لها أن تعيده إلى أمه خَشْيةَ أن يُصيبه شىء من مكْرِ الماكرين .

أعادته حليمة إلى أمه بعد أن أمضى الصبى أربعَ سنوات فى البادية، وسَعدتْ به آمنة وكانت تنتظره فى شوق ولهفة . وأحاطته بحبها وعطفها ورعايتها مما جعل الصبى أكثر حسناً وأحسن سَمْتاً .

كان عبد المطلب جَدُّ «محمد» يزورهم من حين لآخر يتفقدُ أحوالَهم ويسألُ عنهم ، ويطمئنُ على حفيده وفلذة كبده .

وتمضى الأيامُ والشُهور والصبى يحظى برعاية أمه وجدِّه . ثم بدا لآمنة ـ بعد حين ـ أن تأخذ طفلها الى يثرب لزيارة أخواله من بنى النجار، وزيارة قبر أبيه هناك . فأوصتْ أم أيمن «بركة» ـ بأن تُعدَّ الزَّاد والراحلة لرحلة طويلة .

وتنتظرُ آمنة حتى يحينَ موعدُ قيام القَافلة المُسافرة الى يثرب . وفى صباح يوم من الأيام يقفُ عبد المطلب مودعاً حفيده الحبيب وأمه آمنة والجارية بركة ، ويوصى الراحلين بهم خيراً .

وتنطلقُ القافلةُ فى رحلة شاقة وسط الصحراء المترامية من مكة إلى المدينة وينطلقُ صوتُ الحادى بالغناء لتسير على إيقاعه الإبل . ويُبْصر الصبى بعد أيام ـ أرضاً جديدةً تبدو من بعيد حيث هامات النخيل وأغصان الشجر .

وفى يثرب يلتقى محمد بأخواله ، ويفرح به الصبيان من بنى النجار ويخرجُ إلي الطبيعة معهم يرتعُ ويلعبُ ، وينعم بالحدائق والكروم ، ويمتع ناظريه برؤية الأشجار ، وتَطربُ نفسه لسماع خَرير المياه فى الجداول والحقول . مَشَاهد لم يرها من قبلُ ـ فقد كان أخواله ذوو بَسْطةٍ في الرزق والجاه .

وفى ضحى أحد الأيام يقفُ الصبى لأول مرة أمام قبر أبيه ـ ويتأمل بدهشة ورهبة أمه وهى تجلس أمام القبر خاشعةً باكيةً تُردد كلمات ودعوات تَصدَّعَ لها قلبه ، فتحدرت من عينه بعض العَبَرات .

كانت آمنة تُحدثُ وحيدها عن مآثر أبيه وحَميد أخلاقه ، وتضمُّه إلى صدرها ضمةً طويلة كأنها تخشى عليه من الردى ، أو تخشى علي نفسها لوعة الفراق .

نهضتْ آمنة بعد أن أجْهدها الحنينُ ، ومسحتْ دُموعها . وَقبَّلتْ وحيدها ومسحت على شعره وهى تقول :

هيا بنا يا صغيرى فقد اشتد القيظ وودعت آمنة زوجها ـ سَاكنَ القبر ـ وسارتْ مع صغيرها نحو المدينه بخُطىً وانية .

عاش محمد وأمه وأم أيمن فى المدينة قرابة شهر فى ضيافة أخواله من بني النجار ، ثم عاودهم الحنين إلى دارهم في مكة والحنين إلي أهلها ، وحنَّ الصبى إلي جَدِّه عبد المطلب . وإلى رفاقه ، وأجمعوا أمرهم علي العودة إلي مكة . واستأذنت آمنة أهلها فى العودة . فأذنوا لها ، وأعَدُّوا لهم الزاد والرواحل حتى يحين موعد قيام قافله إلى مكة .

وخرجتْ القافلة ذات يوم من يثرب ، وغابت رويداً رويداً عن النظر هاماتُ الشجر ، وابتلعتهم الصحراء بجبالها وسُهولها ورمالها .

وتهبُّ العواصف بعد أيام من السفر ، وتنزل القافلة فى مكان سهل على مَقْربة من قريةٍ صغيرة فى الطريق التماساً للراحة ، وحتى تهدأ العاصفة .

ويسمع الصبى فى هَدْأة الليل أنيناً ، وكذلك تسمعه بركة ، وينظر الصبى إلي أمه فيجدها تَبكى وتعتصرُ ألماً ، ويبدو على وجهها الشُّحوب .

فيسأل الصبى جَزِعاً فزعاً وهو يدنو من وجهها : مالك يا أمى . . ما بك ؟

وتضمُّه آمنة إلي صَدْرها وتقول بصوت واهنٍ : لا تجزعْ يا صغيرى . . لا تجزع .

وتقول أم أيمن من بين دموعها : فَدَتْكِ نفسى يا آمنة . . ليت الذى بك يكون بى . . نفسى فداؤك يا آمنة .

كان الصبى فى حضن أمه ينظر إلى دموعها ذاهلاً مشدوهاً، وتُقَبله هى بوَهَن فتنحدر من عينها دمعة كبيرة ساخنة، وتسقط على خده . . فينتفض لها جسم الصبى .

كانت الأنفاسُ مَبْهورةً ، والسكون يُخيم بظلاله على آمنة ، وتتلفت بركة حولها باحثة عن شيء . . لم تكن تدرى ماذا تفعل من أجل آمنة .

وتقول آمنة وهى تُغالب الألم :

يا بركة أصْغى إلىَّ . . إننى أشعر بالموت يقترب منى . . أوصيك بمحمدٍ خيراً . . إمض به إلى مكه ولا تتركيه . .

وتقول بركة :

« لا تجزعى . . ولا تبتئسى . . محمد أمانة فى عنقى ، وأنا أفتديه بروحى ونفسى »

وفى هدأة الليل تُسْلم آمنه روحها إلى خالقها ، وتَضمُّ أم أيمن الصبىَ إلي حضنها وتُقبل جبينه . وتمسح بيدها على رأسه ولا تملكُ نفسها فتبكى . . . وتبكى . .

هذا والصبى اليتيم يشعرُ بغُصَّة فى حَلْقه ، وأخرى فى قلبه .

وقد عَقدتْ لسانه الدهشة ، وتحجرتْ دُموعه لحظةً من هول المشهد .

أخذ الصبى ينظر إلي وجه أمه الشاحب ذاهلاً حائراً ، وإلي وجه «أم أيمن » ثم انهار باكياً .

وفي الصباح تُدفن آمنة فى قرية « الأبواء » بجوار شجرة وارفة الظلال وتمضى القافلة فى طريقها نحو مكة ، والصبى فى حِجْرِ أم أيمن يرقد حزيناً كسيراً .

وتتعهده هى بالرعاية والحب حتى تصل به إلي مكة .

انتقل محمد إلى دار جده عبد المطلب ، وعاش هناك فى رعاية جده ، وكان جدُّه يُحبه حُباً جَمّاً ، ويُقرِّبه دائماً من مجلسه ، ولا يبدأ طعامه إلا بحضرته .

كان لعبد المطلب أولاد وأحفاد ، ولكنه لم يكن يُولى أحداً منهم عطفاً أكثر من محمد ، وكان يرى فى الصبى صُورةً من ولده عبد الله ، وكان يناديه دائماً بـ « ابنى » ، وإذا جاء من الخارج يسأل عنه دائماً : أين ابنى ؟

ويعيش محمد عند جده مُدةً حتى يبلغ الثامنة من عمره وكانت أم أيمن ترعاه وتحنو عليه فى بيت جده .

ويمرض عبد المطلب ، ويلزم الفراش ، ويزوره أولاده وأحفاده ، ومحمد يقف بجوار جده حزيناً كئيباً ويرنو إلى وجهه الشاحب بأعين دامعة ، وبقلب واجف .

ويشتدُّ المرضُ بعبد المطلب ، ويشتد بالصبى الأسى والهَمُّ وهو يرى من كان يَحُوطُه بعطفِ الأبِّ وحنان الأم يُودع الحياةَ ، ويتركه فيها وحيداً غريباً .

رآه جده يعتصرُ حُزناً ، فأدناه منه وربَتَ على كَتفه بحنان وكان يجلس أمامه أبو طالب ، فأوصى الجد ابنه أبا طالب بكفالة محمد من بعده ورعايته .

ويموتُ عبد المطلب شيخ قريش ، وتحزن مكة كلُّها عليه ، وتعلن الحدَاد ، فلا بيع فى الأسواق ولا شراء ، ولا لهو ولا سَمَر . ولكنَّ حُزنَ محمد كان أشدَّ ، ودمعُه كان أغْزرَ . فقد كان يجد فى جده الحنون العون والسند .

ويجلسُ الصبى فى الدار صامتاً مُنْكسراً ، يَجتَّرُ آلام الفراق ويراه أبو طالب فيضمُّه إلى صدره بحنانٍ شديد ، ويضمه إلى أولاده ، ويحبه حباً يفوق حبه لأولاده .

انتقل محمد إلى دار عمه أبى طالب . وكان عمه قليل المال كثير العيال ، وبرغم ذلك كان ذا جاهٍ ونفوذٍ في قريش وكان رؤوفاً رحيماً بابن أخيه « محمد » .

ودَخَلَتَ البَركةُ بيت أبى طالب . . كان الطعام لا يكادُ يكفى الأولاد ، فأصبح فى وجود الصبى يكفى ويفيض .

وكان الأولاد ينكبُّونَ علي الطعام ويتخاطفونه ولكن محمد كان حَييًّاً عفيفاً ، يَقْنَعُ بالقليل ، ويأكلُ مما يليه ، ولا تُطيشُ يده فى الصَحْفة مثلهم .

ولاَحظ أبو طالب عُزوف ابن أخيه عن الطعام فى وجود أولاده فأخذ يعزلُ له نصيبه ، ويخُصَّه دُونهم بأطيب الطعام .

وذات يوم كان أبو طالب يجهز رواحله للسفر إلي الشام للتجارة

ووقف يودِّعُ أولاده ، و« محمد » يقف دُونهم صامتاً حزيناً .

وبينما كانت القافلةُ تستعدُ للسير ، إذا بمحمد يتعلق بزمام الناقة ويقول لعمه فى ضراعة :

« يا عمِّ . . إلي من تتركنى هنا فى مكة ؟! . . خذنى معك . . ولن أشُقَّ عليك . .

ويقول عمه :

« يا بُنى أخشي عليك طُولَ الطريق ووعثاءَ السفر . . وأنت فتى لم يزل عُودك غضَّاً .

ويتعلق محمد بعمه أكثر ويقول فى لهفة :

« يا عمِّ لا تتركنى هنا وحدى . لا أريد فراقَكَ .

ويرقُّ قلب أبي طالب ويُشفق على الفتى اليتيم ، ابن أخيه ويردد : والله لَتخرُجنَّ معى ولا أفارقك .

ويطير الفتى من الفرحة ويركبُ الناقةَ خلف عمه ، وتنطلق قافلة التجارة تخترق الصحارى وتعبرُ الوديان وتسير ليالى وأياماً حتى تصل إلى سوق بصْرَى (يقع بن الأردن وسوريا) وتحطُّ القافلة على مَقْربة من صومعةَ يُقيم فيها راهبٌ عجوز اسمه « بُحَيْرا » .

ويُطلُّ الراهبُ من شُرفة صومعته فيرى الرجال يهيئون خيامهم للراحة ، ويري صبياً يجلس فى ظل شجرة ويطيل التأمل فى الأفق .

كان «بُحيرا» قارئاً للتوراة والانجيل ، وكان يعلم أن نبياً سيبعث في بلاد العرب وقد آن أوانه ، وكان عنده معرفة بصفاته .

لفت الصبى نظر الراهب ، فأرسل إلي أبي طالب رئيسَ القافلة ورحَّبَ به ، ثم دعاهُ إلي مائدة طعامٍ أعدَّها لأفراد القافلة على ألا يتخلَّفَ عن الحضور صغيرٌ أو كبير

قال أبو طالب :

وَيْحَكَ أيها الراهبُ الكريمُ . . لم نَعْهد منك هذه الدعوة من قبل وكنا نمرُّ بك كثيراً في رحلاتنا للتجارة .

قال الراهب : وددتُ أن أُكرمكم ، وأتحدثَ إليكم يا معشر قريش .

قال أبو طالب : حَسناً سأخبر الرفاق بهذه الدعوة .

وذهب الرجال إلى طعام الراهب إلا محمد ، تركوه جالساً تحت شجرة .

فقال بُحيرا : يا معشر قُريش . . لا يتخلف عن الطعام أحدٌ .

قالوا : يا بُحَيرا لم يتخلفْ عن طعامك سوى فتىً حَدَثُ السِّنِ .

قال : فليحضُر هذا الغُلام .

وجاء محمد وأجلسه بُحيراً بجواره وراح يسأله عن حالات يقظته ونومه . والفتى يُجيبه .

ونظر الراهب فى ظهر الفتى فلمَحَ بين كتفيه شامةً سوداءَ فأدرك أنها خَاتَمُ النبوة .

أومأ بُحيرا برأسه ، وربَت على الفتى بعطف وحب .

ولما فرغوا من طعامهم ، انتحى الراهب بأبى طالب جانباً وسأله : ما هذا الغلام منك ـ وأشار إلي محمد ؟

قال أبو طالب : إنه إبني !

بُحيرا : كلا . . ما ينبغى أن يكون أبوه حياً .

أبو طالب : إنه ابن أخى ، وقد مات أبوه وأمه .

بُحيرا : صدقت . . ارجع بابن أخيك إلى بلدك ، واحذرْ عليه من اليهود .

دهش أبو طالب وتساءل : ولم ؟!

قال بُحَيرا : لأنهم لو رأوا منه ما رأيتُ ، وعرفوا عنه ما عَرِفتُ ليقتلنَّهُ .

وإزدادتْ دهشةُ أبى طالب ، واشتدَّ حرْصُه على ابن أخيه أثناء رحلته فى بلاد الشام ، حتى عادتْ القافلة إلي مكة سالمةً محملةً بالبضائع .

تمت بحمد الله ،